

د. زرارقة عبد السلام¹
معهد اللغات والآداب ، المركز الجامعي -

غليزان ، الجزائر

- ملخص :

في ذاكرة الأدب الوطني المقاوم ثمة ملفات هامة، مازالت لم تحض بالدراسة الكافية، نحاول أن نستخرج ملف الهوية منها على اعتبار أن المستعمر الفرنسي اشتغل عليه بحرفية تامة ورسم له قواعد الاشتباك وفق الرؤيا التي كان يحملها، بحيث أمد الآلة العسكرية بيوميات للتنفيذ فقط، يمكن توصيفها أنها كانت شديدة الاحترام للتعليمات المقدمة، والتي يمكن اجمالها بتغيير الوقائع على الأرض ، وممارسة سياسة الطمس لكل ما هو موجود سيما اذا تعلق الأمر بعناصر الهوية الوطنية .

الكلمات المفتاحية: الهوية - الدين - اللغة - التاريخ - المقاومة.

Abstract :

In the memory of the national resistance literature there are important files, which have not yet been studied enough, we are trying to extract the identity file from them on the grounds that the French colonel worked on him in full professionalism and drew the rules of engagement according to the vision that he carried, That they were very respectful of the instructions provided, which could be summed up by changing the facts on the ground and practicing a policy of obliterating everything that exists, especially when it comes to elements of national identity.

Keywords: Identity - Religion - Language - History - Resistance.

1 - مهاد :

في الحفر في ذاكرة الأدب الوطني المقاوم ثمة ملفات هامة اشتغل عليها، نحاول أن نستخرج ملف الهوية منها على اعتبار أن المستعمر الفرنسي اشتغل عليه بحرفية تامة ورسم له قواعد الاشتباك وفق الرؤيا التي كان يحملها، بحيث أمد الآلة العسكرية بيوميات للتنفيذ فقط، يمكن توصيفها أنها كانت شديدة الاحترام للتعليمات المقدمة، والتي يمكن اجمالها بتغيير الوقائع على الأرض ، وممارسة سياسة الطمس لكل ما هو موجود سيما اذا تعلق الأمر بعناصر الهوية

¹ - البريد الإلكتروني : (zerarka194@gmail.com)

الوطنية، فذلك سيكون أشد إيلًا ما في تاريخ الصراع كله. ذلك أن المعطى الحضاري للأمة الجزائرية كان - في النهاية - هو المفصل الذي غير قواعد الاشتباك وأمد المعركة بالوقود الذي أجج الصراع وفصل في المعركة .

نرسم في البدء مسارًا نتحرك من خلاله في عوالم الأدب المقاوم، بحيث يمكن لهذه الورقة أن تطرح سؤالين اثنين في متعلق المقاومة / الهوية هما :

- هل انخراط - الأدب - في المقاومة قدر تاريخي أملاه الوعي بحركة التاريخ؟ أم هو ردّة فعل فقط لأنية الحدث الاستعماري؟
- هل كان أدب المقاومة يملك فكراً « تعبيرياً » عن قيم يؤمن بها ، أم أنه حالات متفردة للالتزامات إيديولوجية متعددة المرجعيات

2- الحركة الوطنية والهوية :

في متعلق البحث عن المقومات الفكرية والحضارية التي نهل منها أدب المقاومة معينه، سيكون من الأجدى البحث في تاريخ الحركة الوطنية، لنفتش أولاً في الحضور المبكر للوعي بمخططات الاستعمار الفرنسي سيما في ممارسة سياسة طمس معالم الهوية الوطنية، ونأخذ كتابات المفكر مالك بن نبي في نحته لمفهوم الهوية من زاوية حضارية، كمنطلق لفهم القضية وأدوات الاشتغال عليها، ثم فحص تشكيلة الوعي للأساليب والأهداف الخفية التي مارسها الاستعمار الفرنسي، والحركة الاستباقية التي جوبه بها.

و في متعلق المنجز الأدبي نأخذ من عيون البصائر للعلامة الشيخ الابراهيمي قبسات نصية لتمثل حركة الوعي في النتاج الأدبي ، وكيف نفذت اللغة المشحونة بالوعي الحضاري الوجه الأمثل لعناصر الهوية من جهة، والفهم العميق لمرامي الاستعمار من جهة ثانية، يمكن اجمالها - سنعمد لاحقاً الى التفصيل- بقول الشيخ البشير الابراهيمي في مقاله - كلمات مظلومة - « سَمُوا الاستعمار تخريباً - اذ لا تصحّ كلمة استخراب في الاستعمال - لأنه يخرب الأوطان والأديان والعقول والأفكار ، ويهدم القيم والمقامات والمقومات والقوميات »²

في رحاب هذه المقولة المكثفة ستتحرك هذه الورقة لفهم مجمل حثيئات قضية الهوية من مأمولها الحضاري ومنجزها الأدبي .

3- الهوية : الماهية والوظيفة :

في البدء، تعدّ مسألة الهوية من أعقد المواضيع التي تبني الفكر المعاصر دراستها، ومراجعة دفتر شروطها ، حيث وسمتها كل مدرسة فكرية بالميسم الذي يناسب قوامها الفكري والحضاري، ولعلّ أشمل تعريف يمكن تقديمه عن الهوية « هي الأمر المتعلق من حيث امتيازها عن الأغيار »³ ودلالة الامتياز هذه لا

² - اثار الامام محمد البشير الابراهيمي، الجزء الثالث - عيون البصائر، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى 1997، ص

507

³ - الشريف الجرجاني، التعريفات، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب - بيروت 1987، ص 314

تحمل صفة المفاضلة، وإنما تحمل طابع الخصوصية والاختلاف، وهي في منظور ابن خلدون المزاجية الطبيعية التي تنسجم على التقائها المواد « كل شيء لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله »⁴ بحيث إذا انتفت صفة الخصوصية للشيء سينتفى معها وجود الشيء في أصله. أما إذا جننا إلى الهوية من الناحية اللغوية فنجدها مأخوذة من " هُوَ هُوَ " وهو تعلق الشيء بذاته المخصوصة، أي حمله لجوهرها وحقيقتها « هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب »⁵ ولما كان لهوية الحضارة التي يحملها الإنسان ويدافع عنها مناط النظر والتأمل، فإن الذي ينبغي إداركه هو انبناؤها على عنصرين هامين هما : الثابت والمتغير، متلازمين في عملية البناء الحضاري، بحيث يعتبر الثابت ممثلاً للهوية، حاملاً لصفات جوهرية كامنة فيها، يمكن إضافة عدّة توصيفات له داخلية في تكوينه، ككون الهوية متجددة، وليست متغيرة، متمسكة بالتجلي والإفصاح دون أن تسمح للأغيار بالتحول إلى ثوابت في هيكلها. والمتأمل في مكونات الهوية يجدها ترسم في عناصر ثلاثة يمكن ترتيبها بالصورة التالية :

- العقيدة التي ترسم رؤية للإنسان والحياة والموت وللوجود كله.
- اللغة التي يجري التفكير والتواصل بها.
- التاريخ وعناصر الثقافة على اعتبار توفرهما على الامتداد الحضاري.

4- الدين وسؤال الهوية :

عندما نتوقف على عنصر الدين الذي يتكفل بتنظيم الطاقات الخيرة في الأمة ساعة تعرض الوطن للخطر، والعمل على إذابة كل الهويات المخصوصة إلا إذا كانت محلّ تفاضل وتمايز في الدفاع عن الوطن ساعة الخطر. فإنّ الانتباه الممزوج بالحدس سيرافقنا، لأنه ليس « من العبث الشك في أن ملكات الإنسان قد اشربت بالروح الدينية إلى حد بعيد »⁶ و فاعلية العمل الواعي في ذلك أن المجال المسموح لامتدادات الهويات أو تقلصها، كامن في كيفية التعامل مع الثوابت والمتغيرات، بحيث يشكل الترابط بينهما وما مدى توفر المرونة في التنسيق بينهما العتبة التي تنتظم من خلالها دورة الحضارة، ولعل بدايات الانتباه الواعي الذي صحب ميلاد الحركة الوطنية يمكن توصيفه في

- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. ⁴ المجلد الأول، بيروت 161 ص 58.

⁵ - الجرجاني، التعريفات ، مصدر سابق، ص 314

⁶ - طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، الطبعة الثالثة، 2006 المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء ، ص 25

حقيقة مؤكدة وهي « أننا لم ندرس الاستعمار دراسة علمية، كما درسنا هو، حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية والدينية »⁷ قد لا تحتاج مقاصد الاستعمار الفرنسي مزيداً من عناء البحث عنها، إذا عومل الاستعمار على أنه واقع متحقق وظاهر للعيان، فهو « تهديم في جوهر الفرد المستعمر ومحو عبقريته بالانتقاص من قيمته، وتحطيم قواه الكامنة فيه »⁸ وهذه كلها مقدمات مدروسة بعناية ليتحقق بها ما اسماه مالك بن نبي القابلية للاستعمار، ولعل أبسط تحقق لعملية القابلية هو أن يرضى الجزائري بالتسمية التي أطلقها عليه المستعمر وهي " الأهلي " بكل ما تحمله من روح للاحتقار والاستخفاف.

ولفاعلية هذه الفكرة وفهم مدى خطورتها، يميل مالك بن نبي إلى الانتباه على أن المسألة الاستعمارية هي بالأساس مسألة نفسية « فتصفية الاستعمار في الإنسان تشترط تصفيتها في الأرض، ويجب أن تتقدمها »⁹ في تمثل المنجز الأدبي لهذه النقاشات المستفيضة لمسألة الدين، وفاعليته في اذكاء الصراع، نجدها في كيفية استقباله بحيث اتصفت بالصفاء التام في فهم أثر الدين في حياة الأمة الجزائرية، حيث نجد معالمه واضحة لا يكتنفها غموض، ذلك « أن الاسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين القواعد والوااسي، قد جلا الاصلاح حقائقه فكان له منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره فكان له منهم حارس يقظ ، وعاد كتابه (القرآن) الى منزلته في الإمامة فكان له منه الحمى الذي لا يطرق، والسياج الذي لا يخرق »¹⁰

5- اللغة ومسألة الهوية :

إذا جننا الى المكون الثاني الممثل في اللغة، فقد نتجاوز كثيرا الأساليب المعهودة كنشر الجهل بين الجزائريين، وحرمانهم من التعليم، أو منح فرصة للجزائريين للتعليم ولكن وفق المنظومة الفرنسية، حيث « كان التعليم أيام الحكومة الفرنسية استعماريًا بحتًا، لا يعترف باللغة العربية ولا يقيم لوجودها أي حساب، فاللغة الفرنسية هي لغة التدريس في جميع مراحل التعليم »¹¹ ، وانما ننقل الى الانتباه الواعي الذي قدمه مالك بن نبي مثله في الاستعمار والابتعاث * وكيف يعمل الاستعمار بعناية فائقة على هذا الملف في سبيل اذكاء الصراع

7 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر ، ص 14

8 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 14

9 - مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر ص 44

10 - اثار الامام محمد البشير الابراهيمي، الجزء الثالث - عيون البصائر، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى 1997، ص

82

11 - أحمد توفيق المدني، جغرافيا القطر الجزائري، مكتبة النهضة ، الجزائر 1963، ص 138

* الابتعاث هو ارسال عدد من خريجي المدارس الحكومية الى البلدان الغربية للتخصص في الدراسات العليا .

الفكري، بحيث يعود بعض أفراد هذه البعثة وهم يحملون في أذهانهم وعقولهم فكر وثقافة الغرب ولغته .

في منظور مكونات الهوية الوطنية عبر منجزها اللغوي، الاحتكام الى الثوابت عبر تسيير الجهد البياني نحو اقرار الحقائق دون مواربة، بحيث أن « اللغة العربية هي لغة الاسلام الرسمية،ولهذه اللغة على الجزائريين حقان أكيدان،كل منهما يقتضي وجوبهما،فكيف اذا اجتمعا،حق من أنها لغة دين الأمة،بحكم أن الأمة مسلمة،وحق أنها لغة جنسها،بحكم أن الأمة عربية الجنس

12»

6- التاريخ وسؤال الهوية :

في حضور التاريخ عبر جملة من الأحداث الكبرى، ثمة انعطافات في تقديم جرعات الوعي بالحقيقة الاستعمارية حتى و ان تعددت وجوهها، بحيث تستمر الوسائل و الاكراهات نفسها في خدمة المقصد العام، ويستمر عناد الشعوب أيضا في المقاومة والرفض، سيما إذا تعلق الأمر بالجزائر، لأن « ارض الجزائر أرض ملاحم نتيجة لمكانتها الجغرافية،ومشاركتها الفعالة في تثبيت أسس الحضارة الإنسانية منذ العصور الأولى، ولما يوجد شبر منها لم تسقه الأقدار دما»¹³

في دفتر الوعي الذي قدمه مالك بن نبي ثمة اقرار بحقيقة واحدة أزلية، غير منتهية الصلاحية، تسبق كل تغيير، وهي « ان القضية عندنا منوطة أولا،بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في انفسنا، من استعداد لخدمته.... ومادام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا ... فلا رجاء في استقلال ولا أمل في حرية»¹⁴

في المقابل نجد أنّ اللغة الواصفة للأحداث الدائمة المعروفة بمجازر 8 ماي 1945 تتخلّى عن المهادنة، وتجلي الحقائق كما هي دون مواربة، بحيث تكشف زيف الاستعمار وخبث معدنه من الأصل، لتتوعد قائلة له « لك الويل أيها الاستعمار!! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجذك،واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك ؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام،ويجوع أهله وأهلك بطن،ويثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شعاعا؟»¹⁵

رغم الحفر في بعض أجزاء الذاكرة فان معول هذه الورقة قد يتآكل ويبلَى لان موضوع الهوية أبعد من أن تحيط به ورقة بحثية مقدمة ليوم دراسي .

12 - عيون البصائر، مصدر سابق، ص 48

13 - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الطبعة الخامسة 2007، دار الرائد للكتاب - الجزائر، ص

123

14 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق ص 155

15 - عيون البصائر، مصدر سابق، ص 335